سيكولوچية الموت والاحتضار

د. أحمد محمد عبدالخالق
أستاذ علم النفس - جامعة الكويت

عرض وتحليل
السيد المخزنجى

مقدمة

كتاب «سيكولوچية الموت والاحتضار» للدكتور أحمد محمد عبد الخالق أستاذ علم النفس بكلية العلوم الاجتماعية جامعة الكويت، الصادر عن «لجنة التأليف والتعريب» بمجلس النشر العلمى، عام ٢٠٠٥م بجامعة الكويت يعتبر من أهم الكتب فى هذا الموضوع المعقد الذى لم - وربما - لن يستطيع أحد اكتشاف سرًّ هذا «الموت» على رغم ما يفعله الموت كل يوم فينا نحن الأحياء على ظهر هذه الدنيا «الفانية». فثمة كتب كثيرة تناولت «الموت» من جوانب مختلفة، مُحاولة تعريفه سواء من الناحية الطبية أو الناحية الشرعية، وكذلك الفلسفية وأخيرًا وليس آخرًا فكرة «الموت فى الشعر العربى الحديث».

ومن طرائف الأمور أننا نجد من تكلم عن «الموت» فى الإبداع الروائى العربى والأجنبى على السواء، ومن ثم انتقل منه للحديث عن «موت الأدب»!!

والحقيقة أن هذا الكتاب الذى نقدم عرضًا تحليليًا لفصوله والتعريف بأهم الأفكار والمحاور الرئيسية لأبوابه الخمسة التى شكلت فى مجملها فصول الكتاب السبعة عشر، إضافة إلى مراجع الكتاب باللغتين العربية والإنجليزية، حيث بلغ عدد صفحات الكتاب نحو (٤٩٥ صفحة) من القطع المتوسط (مقاس ٥ ,٢٣ × ٥ ,١٦ سم).

أقول: ليس هذا هو الكتاب الوحيد للمؤلف فى هذا الموضوع الذى شغل اهتمامه منذ نحو عشرين عامًا حتى الآن، فقد صدر للمؤلف كتاب آخر بعنوان «قلق الموت» فى عام ١٩٨٧، ضمن سلسلة (عالم المعرفة) بالكويت.

تقسيم الكتاب

قسم الدكتور أحمد عبدالخالق كتابه (سيكولوچية الموت والاحتضار) إلى خمسة أبواب رئيسية يندرج تحت كل باب منها عدة فصول، حيث كانت على النحو التالى: الباب الأول: الموت والاحتضار، الباب الثانى: الضيق من الموت، الباب الثالث: متعلقات قلق الموت، الباب الرابع: الفروق الثقافية (قلق الموت عبر الثقافات الإنسانية)، ثم الباب الخامس والأخير: «تطبيقات بحوث الموت والاحتضار - الخبرات القريبة من الموت»، هذا إلى جانب «ملخص» لموضوع الكتاب باللغتين العربية والإنجليزية.

وبالرغم من أن «الموت» حدث ينفر منه كثير من الناس بما فيهم العظماء والمتخصصون، إلا أننى شخصيًا وجدتنى مدفوعًا بشىء من داخلى لقراءة هذا الكتاب والوقوف على ما فيه من أفكار وآراء للمؤلف حول موضوعه، وربما يرجع هذا الدافع الشخصى لأننى انشغلت بالتفكير فى هذا الموضوع وعلاقته بالروح، وكذلك محاولة معرفة ما إذا كان للموت علاقة بنومنا نحن أم لا؟!

المقدمة

يؤكد الدكتور أحمد عبدالخالق فى مقدمة كتابه هذا على أن الدعوة لكثرة التفكير فى الموت واردة فى كل الأديان السماوية، وبخاصة فى الديانتين المسيحية والإسلامية، فقد ورد عن النبى ﷺ أنه قال: «أكثروا من ذكر هادم اللذات» يعنى الموت، رواه أحمد والترمذى والنسائى وابن ماجة، وفى رواية «دخل النبى ﷺ مُصلى فرأى ناسًا يكشرون، فقال: أما إنكم لو أكثرتم ذكر هادم اللذات، فأكثروا من ذكر هادم اللذات.. أكثروا من ذكر الموت، فإنكم إن ذكرتموه فى غنى كدَّر عليكم... الحديث».

ويشير المؤلف إلى أنه اهتمت علوم وتخصصات عديدة بدراسة الموت والاحتضار أولها العلوم الصحية ومنها: الطب، والتمريض والصحة العامة والوبائيات، وثانيها: العلوم الاجتماعية والسلوكية

وعلى الأخص علم النفس والأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع والقانون والدين والفلسفة والأدب. ونشأ في منتصف القرن العشرين الماضي علم يسمى «علم دراسة الموت والاحتضار Thanatology» والذى يعرفه «كاستنباوم» تعريفًا خاصًا بأنه «علم دراسة الحياة التى تنتهى بالموت» (ص/ ٦ من الكتاب).

الموت ودراسته

فى الفصل الأول من الباب الأول من الكتاب عرض المؤلف لعديد من الدراسات العلمية المختلفة عن «الموت» والتى اعتبرها بمثابة «تمهيد» لموضوع كتابه، فأشار إلى تعريف الموت من الناحية الفنيَّة الذى يعنى «توقف العمليات الجسدية والعقلية فى الكائن العضوى... «فى حين شغلت مشكلة الموت علماء الأحياء (البيولوجى) فعرف «بيشا Bichat» الحياة بأنها «مجموعة الوظائف التى تقاوم الموت».

بينما يهتم علم النفس بدراسة الاستجابة للفقد وما يصاحبها من مظاهر انفعالية وحركية، وكذلك انعكاساتها على الصحة النفسية والجسمية والمهنية بوجه عام.

وأوضح المؤلف أن العرب من أكثر الشعوب التى اهتمت لغتها ـ شعرًا ونثرًا ـ بالتعبير عن مواقف الحياة بحلوها ومرها، ويقع «الموت» بطبيعة الحال فى قلب الجانب الآخر. ولكنه يرصد أن موضوع الموت فى مجال الأنثروبولوجيا لم يستوف حقه الكافى فيها (ص/ ٢١ من الكتاب).

الموت فى الفلسفة

يقول المؤلف وهو يشرح مفهوم الموت فى الفلسفة، لقد شغلت مشكلة الحياة والموت جانبًا غير قليل من تفكير الفلاسفة والمفكرين، فصدرت عنهم تأملات ميتافيزيقية وآراء فلسفية واجتهادات فكرية شتى عبر التاريخ الفكرى الطويل للإنسان... ومن ذلك أقوال «سقراط»، و«ديكارت»، و«بسكال» و«شوبنهاور»، وفى الفلسفة الوجودية، عالم النفس «أدريان تومر»، ووجهة نظر «مارتن هايدجر»، وجان بول سارتر (الذى أعتبره أقدر من استطاع الحديث عن الموت حينما قال: «.. يحدث الموت فى داخل النفس بحيث لا نستطيع أن نجربه ونمر بخبرته..» (المُراجع)

أما القلق من الموت فهو خاصية إنسانية أساسية كما يقول المؤلف، ومن الواضح أنها مسألة حساسة للأفراد المتقدمين فى العمر، وقد سلم جانب من علماء النفس فى هذا الصدد بأن الفرد يجب أن يتقبل حتمية الموت ونهائيته بوصفه حقيقة مطلقة، ويتعين عليه فى النهاية أن يجد معنى الوجود الإنسانى فى حقيقة موته هو (ص ٢٩ من الكتاب).

ولأن الكتاب ـ فى جوهره ـ يصب فى مجال علم النفس وبحوثه المختلفة، نجد المؤلف يعنى كثيرًا بالتركيز على فكرة التحليل النفسى للموت فى هذا المجال، ويشير إلى أسباب تأخر الاهتمام ببحوث الموت والتى منها عدم استقلال علم النفس

فى بدايات مراحله الأولى عن الفلسفة العقلية والميتافيزيقيا... إلى أن يسلمنا للحديث عن «تناقض توجهاتنا نحو الموت» والذى يتمثل فى تسلمينا نحن البشر به، ولكننا ننكره» (ص٤٤ ـ ٦٥).

ينتقل المؤلف بعد ذلك للحديث عن الاحتضار: Dying وهو العملية التى تنتهى بالموت، الذى ليس بالضرورة أن يكون لدى المحتضر قلق موت أقوى مما عند الأسوياء خلال حياتهم العادية، وفى الفصل الثالث «تطور الموت» يعرض المؤلف لمفهوم تطور الموت فى علم النفس، اعتمادًا على المفهوم التطورى للعمر (الذى يعنى محصلة السنين ونتاجها) من خلال مجموعتين كبيرتين من الدراسات فى علاقة العمر بالموت، أولاهما تعالج مسألة تطور مفهوم الموت من الطفولة إلى الرشد، والثانية تبحث فى علاقة قلق الموت بالعمر بواسطة أسلوبين إحصائيين هما: دراسة الارتباطات، وفحص الفروق بين المجموعات العمرية.

وقد أشار المؤلف إلى وجود أكثر من ثمانين دراسة حتى عام ١٩٩٣ عن تطور فهم الطفل للموت.. وكذلك نسبة من الراشدين، وهذه الدراسات تشير ـ بوجه عام ـ إلى أن مفهوم الرجعة (بعد الموت) مفهوم معقد، يتضمن اعتبارات طبيعية وغير طبيعية. وإن كان ما يلفت النظر هنا هو حديث المؤلف عن «تخيّل الموت» الذى يجسده الأطفال فى مرحلة الطفولة المتأخرة، حيث يتصورونه على شكل شخص، أما بالنسبة للراشدين وكيف يتخيلون الموت فقد ذكر «كاستبناوم وايسنبيرج» أن الموت لدى عينات من أمريكا الشمالية، يشيع النظر إليه من كلا الجنسين على أنه ذكر male. هذا التخيل التقليدى عن الموت، الذى يصوره على أنه «الأب ـ زمن» والحاصد الشرس والمغوى الخادع (ص ٩٧ من الكتاب)

انفعالات الموت

فى الباب الثانى من الكتاب يتناول المؤلف فى الفصل الرابع، «الانفعالات المرتبطة بالموت» وهى: القلق والاكتئاب والوسواس. فيذكر أن العلاقة بين هذه الانفعالات أو المشاعر الثلاث علاقة مركبة، وأن التداخل بينها كبير، إذ يشملها جميعًا مصطلح العصاب Neurosis (الاضطراب النفسى) بالتعبير القديم. فى حين يندرج الوسواس (مع تسعة تصنيفات فرعية أخرى) تحت تصنيف عريض هو «اضطرابات القلق»، أما الاكتئاب فيندرج تحت «الاضطرابات الوجدانية فى التصانيف الأحدث. وفى هذا الصدد قدم المؤلف مفهومه للضيق من الموت، حيث افترض إمكانية استخراج عامل عام يجمع أهم الاتجاهات نحو الموت أو الانشغال بالموت.

وسواس الموت

تحت هذا العنوان ذكر المؤلف أنه قدم مفهوم وسواس الموت Death obsission ومقياسه وعرفه

بأن: «وسواس الموت (عبارة عن) أفكار متكررة مستمرة يقوم الفرد باجترارها أو تخيلات تقتحم العقل، وتتركز حول موت الفرد أو الآخرين المهمين بالنسبة له» (Abdel - halek, 2000 - 1998C) حيث يرى أن ثمة علاقة متبادلة بين الموت والوسواس فضلاً عن التداخل بينهما (ص/ ١٠٨ من الكتاب).

وينتقل المؤلف بعد ذلك ليتحدث فى الفصل الخامس عن «مفهوم قلق الموت» فيقرر أن الخوف من الموت أمر شائع وعام لدى البشر جميعهم، ذلك أن الموت يقتحم أفكارنا وحياتنا بطرق شتى ولأسباب متعددة، سواء أكانت هذه الأسباب بيئية خارجية كموت عزيز مثلاً، أم نفسية داخلية كمرض يصيب الإنسان، أو اكتئاب يعتريه، أو قلق يلم به، أو ألم يضايقه أو عندما يحبط فى عمله، (وأضيف هنا أو حتى فى حياته المعيشية أو الأسرية).. وهكذا.

ثم يعرج المؤلف من ذلك لتعريف قلق الموت وإشكالياته وتباين وجهات النظر فى هذا الصدد، ومع ذلك يقدم د. أحمد عبدالخالق» تعريفًا مقترحًا «لقلق الموت، بأنه «استجابة انفعالية مكدرة، ومشاعر شك وعجز وخوف تتركز حول كل ما يتصل بالموت والاحتضار لدى الشخص نفسه أو ذويه» (ص/١١٩ من الكتاب) وعرض المؤلف أيضًا لتطور قلق الموت فى إطار علم النفس من خلال تصنيفات متعددة، يأتى فى مقدمتها علم النفس ودراسته للموت والاحتضار، وكذلك لأهمية دراسة الموت، وما يسميه بـ «مكونات قلق الموت، وهما: حالة الصحة النفسية بوجه عام وخبرات الحياة المتصلة بموضوع الموت.

ولعل الشكل (١) التالى الذى أورده المؤلف هنا يلخص «نموذج شامل لقلق الموت» (الرسم فى ص ١٣٤ من الكتاب).

ويحاول المؤلف فى هذا الصدد أن يقدم إجابات علمية مجتهدة عن تساؤلات عديدة فى هذا الجانب، مثل: قلق الموت.. هل هو حالة أم سمة؟، هل من الطبيعى أن نخاف الموت، قلق الموت هل هو مُيسِّر للحياة أو معسر؟ وكذلك بيان الصعوبات التى تواجه بحوث قلق الموت. ويخلص المؤلف من ذلك لبيان أبرز النتائج التى توصلت إليها «بحوث قلق الموت» فى هذا الصدد (ص ١٤٢ ـ ١٤٤).

قلق الموت.. هل يمكن قياسه؟

يجيب الفصل السادس من الكتاب عن هذا السؤال، إذ يقول المؤلف: يقاس قلق الموت بعدة طرق أهمها: المقابلة الشخصية، والطرق الإسقاطية، وقوائم الاختيار، والأداء التجريبى (الذى يعتمد على الوسائل الفيزيولوجية «وزمن الرجع» الذى يقصد به تقديم عدة كلمات مرتبطة بالموت وأخرى محايدة والطلب منه أن يقرأها بصوت مرتفع، وأن يذكر تداعياتها (انعكاساتها عليه بالنسبة لكل منها) وهناك أيضًا مقياس التقديرات اللغوية الفارقة، والاستخبارات، وهى أكثر الطرق استخدامًا فى هذا المجال. ويوجد منها

الآن ما يزيد عن ثلاثين استخبارًا لقياس قلق الموت أو الخوف منه والانشغال به والاتجاه نحوه.

ويرد المؤلف الزيادة الكبيرة لبحوث قلق الموت فى ربع القرن الأخير (القرن العشرين) إلى استخدام مقياس استخبارات التوجه نحو الموت وبنسبة تزيد على ٩٥٪ من الدراسات المنشورة حتى الآن (ص/ ١٥٣ من الكتاب).

ومع ذلك لم تسلم هذه الطرق (المقاييس) من نقد المؤلف لها، بعد استعراضه لكثير منها فى هذا الفصل، وبخاصة مقاييس كل من: تمبلر الذى وضعه فى عام ١٩٧٠م، و«كوليت ليستر» للخوف من الموت ـ و«ديكستاين» (الانشغال بالموت) و«هولتر». المقياس المتعدد الأبعاد للخوف من الموت واستخبار قلق الموت، و«بروفيل الاتجاه نحو الموت» لجيسار وونج وريكار، ومؤشر التمهيد الذى وضعه «نايمر» والمقياس المعدل لقلق الموت الذى أعده ثورسون وباول»، والمقياس العربى لقلق الموت الذى وضعه (المؤلف) فى عام ١٩٩٦م معتمدًا على عينات مصرية، بمساعدة صديقه وزميله د. عادل شكرى. ثم مقياس قلق الموت عند الأطفال الذى وضعه «شيل وسيفيلت» فى عام ١٩٩١م.

ثم مقياس (عبدالخالق) نفسه الذى أجراه على ١٤٣٩ طالبًا جامعيًا متطوعًات من مصر والكويت والذى استخدم معهم مقياس قلق الموت لـ (تمبلر) ومقياس قلق الموت المعدل (ثورسون وبوويل).. وأن مقياس عبد الخالق يتكون من بند واحد للتقدير الذاتى، وهو «أخاف من الموت» ويجاب عنه على أساس مقياس «ليكرت» سباعى النقط، حيث تتراوح الإجابة فيه بين معارض جدًا وموافق جدًا، (ص/ ١٨٣ من الكتاب)

وخلص المؤلف من ذلك إلى المطالبة بضرورة التقليل من الاعتماد على المقاييس أحادية البعد والشاملة، مع التركيز أكثر على المقاييس متعددة الوجهات أو الأبعاد التى تطرق مدى أوسع من الاتجاهات نحو الموت، مع ضرورة العمل على تطوير مقاييس أفضل فى مجالات البحث فى علم النفس (ص ١٩٠/ من الكتاب)

أسباب قلق الموت

بعد ذلك يستعرض المؤلف فى الفصل السابع من كتابه أسباب قلق الموت من منظور التحليل النفسى فى الدراسات الأجنبية والعربية، مع تركيزه الواضح على دراساته الثلاث التى أجراها على عينات من طلاب الجامعات أُختيرت من ثلاث دول عربية هى مصر، والمملكة العربية السعودية، ولبنان، إلى جانب دراسة أخرى له على عينة من طلبة وطالبات جامعة الكويت.

وقد كشف الجدول رقم (٢٠) (ص ٢٠١/من الكتاب) عن ١٨ سببًا للخوف من الموت ذات مصادر متعددة لهذا الخوف تتمثل فى العبارات التالية.. حيث اعتمد مقياس المؤلف على عبارة واحدة وجهها للمبحوث وهى «أعارض بشدة» و«أوافق بشدة» فكانت النتائج على النحو التالى:

أسباب الخوف من الموت	أعارض بشدة	أعارض	محايد	أوافق	أوافق بشدة
١ - خشية العقاب الإلهى	١	٢	٣	٤	٥
٢ - القلق على الأبناء	١	٢	٣	٤	٥
٣ - كثرة الذنوب	١	٢	٣	٤	٥
٤ - الحياة فيها معان جميلة	١	٢	٣	٤	٥
٥ - فراق الأهل والأحباب	١	٢	٣	٤	٥
٦ - ترك ملذات الدنيا	١	٢	٣	٤	٥
٧ - الخوف من النار ويوم القيامة	١	٢	٣	٤	٥
٨ - المشقة الشديدة عند لحظة مفارقة الروح للجسد .	١	٢	٣	٤	٥
٩ - عدم تأدية العبادات والفروض الدينية	١	٢	٣	٤	٥
١٠ - الموت فيه أمور كثيرة مجهولة وغامضة	١	٢	٣	٤	٥
١١ - عنصر المفاجأة فى الموت	١	٢	٣	٤	٥
١٢ - ضعف الإيمان	١	٢	٣	٤	٥
١٣ - حزن الأهل والأحباب	١	٢	٣	٤	٥
١٤ - عذاب القبر	١	٢	٣	٤	٥
١٥ - الآلام الشديدة المصاحبة للموت	١	٢	٣	٤	٥
١٦ - الحزن على ما سيتركه من مال وأشياء ثمينة	١	٢	٣	٤	٥
١٧ - فقد الذاتية	١	٢	٣	٤	٥
١٨ - يضع الموت نهاية لخطط الفرد وأهدافه	١	٢	٣	٤	٥

قلق الموت والعمر

فى الباب الثالث (الفصل الثامن من الكتاب) يعرض المؤلف لعدد من البحوث التى تثبت العلاقة بين قلق الموت والعمر. حيث كشفت بعض الدراسات عن وجود ارتباط سلبى منخفض بين قلق الموت والعمر، أى إنه كلما تقدم العمر انخفض مستوى قلق الموت. فى حين ظهر ارتباط موجب منخفض بين قلق الموت والعمر بين نزلاء السجون.

كما عرض الكتاب لموضوع قلق الموت لدى كبار السن والذى استأثر بقدر كبير من الدراسات قام بها كل من «فيفل»، «تمبلر»، «جيسار وزملاؤه» وأحمد عبد الخالق وآخرون (١٩٩١) و«ميونشز» فى هولندا، و«كاليش ورينولدز».

وقد رصد المؤلف تفسيرات كثيرة لانخفاض قلق الموت لدى كبار السن، أبرزها ما تتسم به شخصية هؤلاء من «الاتزان ورباطة الجأش التى تكون قد تولدت من عملية المراجعة الإيجابية

للحياة»، وربما يجدون «بعض المعنى فى الموت» على حد تعبير: Thorsona Powell, 1988 (ص/ ٢١٦ من الكتاب) .

ويرى (المؤلف) أن متغير العمر المتوقع ذاتيًا - فضلاً عن إمكان افتراض ارتباطه بقلق الموت - يمكن أن يصلح مؤشرًا جيدًا لجوانب عدة فى الشخصية الإنسانية، إذ يمكن افتراض ارتباطه الإيجابى بسمتى الاستبشار والتفاؤل ويفترض ارتباطه السلبى بالقلق والاكتئاب، كما يعد افتراض ارتباطه بالصحة الجسمية والصحة النفسية فضلاً عن نوعية الحياة، أمرًا مسوغًا تمامًا (ص/٢٢٧ من الكتاب).

قلق الموت والتدين

فى الفصل التاسع من الكتاب يتناول المؤلف بيان العلاقة بين قلق الموت والتدين، لما للدين - فى الرسالات السماوية عامة - من اهتمام كبير بهذا الموضوع. ويطرح المؤلف فى هذا الصدد عدة أسئلة مهمة عن العلاقة بين تدين شخص ما ودرجته بالقلق من الموت، وما الدور الذى يمكن أن يقوم به التدين فى مجال الخوف من الموت؟ بمعنى أن يزيد هذا الخوف أم ينقصه أم يكون «عاديًا» الخوف من الموت؟ وما الفرق بين أصحاب الديانات المختلفة فى قلق الموت؟

إن هذه الأسئلة وغيرها يزيد عمرها عن نصف قرن من الزمان وقد اختلفت الإجابات عنها اختلافًا غير قليل. وقد قسم المؤلف نتائج بعض الدراسات التى أجريت فى هذا الصدد إلى خمسة أقسام تمثلت فى الآتى:

١ - لا توجد علاقة بين قلق الموت والتدين.

٢ - هناك علاقة إيجابية بينهما.

٣ - العلاقة بينهما سلبية.

٤ - علاقة بعض المكونات إيجابية والأخرى سلبية.

٥ - العلاقة بينهما منحنية.

وقد عرض د. أحمد عبد الخالق لتلك النتائج بشىء من التفصيل فى هذا الفصل (ص ٢٣٢ - ٢٥٧ من الكتاب) وخلص من ذلك إلى وجود تضارب فى نتائج تلك البحوث والدراسات بخصوص هذه العلاقة، وأنها علاقة معقدة، نظرًا لتدخل متغيرات عديدة من الصعب ضبطها أو معرفة اتجاه تأثيرها.

وأرجع د. أحمد عبد الخالق هذا التضارب فى النتائج لعدة أسباب:

١ - التباين الشديد فى خصائص العينات المستخدمة من نواح عدة، مثل: العمر والجنس والعرق والعقيدة التى يؤمن بها الفرد، والمهنة، والمرض، والثقافة.

٢ - الاختلاف بين المقاييس المستخدمة لكل من قلق الموت والتدين.

٣ - اختلاف الاختبارات الإحصائية المستخدمة: اختبار «ت» لجوهرية الفروق بين متوسطات المجموعات، ومعامل الارتباط لفحص العلاقة بين المتغيرين.

٤ ـ الفروق بين البحوث فى تصميم خطة تحليل البيانات (تبعًا لتقسيم عينة الدراسة من ناحية التدين إلى قسمين: شديدة التدين، وقليلة التدين).. إلخ.

ومن هنا ـ كما يقول المؤلف (ص: ٢٥٧) كانت العلاقة بين الموت والتدين علاقة معقدة، وليس من اليسير ترجيح نتائج مجموعة من الدراسات على أخرى، إلا إذا كان ذلك مبينًا على أساس دراسة علمية (إمبريقية).

ولذا يرى المؤلف أن الحاجة ماسة إلى دراسات حاسمة Crucial تعتمد على طرق تحليل إحصائى متقدمة ومتعددة، ووسائل قياس متطورة أهم ما يميزها محاولة تحسين صدق المقاييس لا سيما مقاييس التدين، وحل المفارقة فيها بين الاتجاه اللفظى والسلوك الفعلى. كما أن الاعتماد ـ فى قياس المتغيرين ـ على مقاييس متعددة الأبعاد، يعد أفضل من الاعتماد على مقاييس أحادية البعد.

وبالرغم من ذلك أمكننا الوقوف فى بعض صفحات هذا الفصل على جوانب إيجابية عرض لها المؤلف فيما يتعلق ببعض الدراسات على عينة من طلاب الجامعة تبحث علاقة «التدين» بقلق الموت، وقد قيست هذه العلاقة بمقياس (عربى) يعتمد المعيار الذاتى من خلال سؤال محدد وجه للمبحوثين وهو: ما درجة تدينك؟

وقد خلص من ذلك إلى نتيجة مؤداها أنه: «كلما زادت قوة الاعتقاد الدينى انخفض (أى تراجع الخوف) من قلق الموت، والعكس صحيح، حيث تشير هذه النتيجة إلى أهمية العقيدة الدينية كما يراها الشخص عن نفسه ـ فى الدفاع ضد قلق الموت وتخفيضه (ص ٢٤٠ من الكتاب).

أيضًا من إيجابيات هذا الفصل حديث المؤلف عن الموت فى الديانات السماوية وغير السماوية ومدى علاقته بقلق الموت. وخصوصًا تناوله للموت فى الدين الإسلامى، حيث يعتبر «الموت» بالنسبة للمؤمن ولادة جديدة، كما فى قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ (الملك: أية ٢)، فقد قدم الموت على الحياة تنبيهًا إلى أنه يتواصل به إلى الحياة الحقيقية... ولذلك نجد كثيرًا من المتدينين بدرجة شديدة وصل بهم الزهد والتصوف إلى الدرجة التى لا يخشون الموت فيها أبدًا، بل إن بعضهم قد يرنو إليه مشتاقًا،، وينتظره متلهفًا.

ومن طرائف هذا الفصل من الكتاب حديث المؤلف عن «قلق الموت لدى عينات من المسلمين الهنود» و«قلق الموت لدى المصريين المسلمين» وكذلك «قلق الموت» لدى المسلمين والمسيحيين والهندوس و«الفرق بين التدين والروحية»... إلخ (ص ٢٤٩ ـ ٢٥٣ من الكتاب).

قلق الموت والمهنة

إذا كان قلق الموت بمثابة «وحدة مرنة» (على حد تعبير المؤلف) يمكن أن تتأثر بعدد من العوامل، التى يفترض من بينها عامل المهنة أو العمل الذى يمتهنه الشخص، فقد قدم لنا المؤلف فى الفصل العاشر من كتابه تناولاً لقلق الموت وعلاقته بالميول المهنية المختلفة، سواء كانوا أطباء بشريين أو

اختصاصيين فى علم النفس، أو العاملين فى «الجنازات» (ودفن الموتى)، أو إطفائى الحرائق، أو ضباط الجيش أو العاملين فى مجال الطوارئ أو حتى العاملين بصفة عامة ومن منهم فى سن التقاعد.

وانتهى من ذلك إلى وجود بعض النتائج التى تعد ذات مغزى فى هذا الصدد، وأهمها ارتفاع متوسط قلق الموت لدى الممرضات العاملات فى وحدة العناية المركزة بالمقارنة إلى غيرهن من الممرضات فى تخصصات أخرى، وكذلك ارتفاع متوسط قلق الموت عند رجال إطفاء الحرائق، وهم يتعرضون لأخطار حقيقية ويرى المؤلف - على كل حال - أن المجال الذى يربط بين قلق الموت والمهنة بحاجة إلى مزيد من الدراسات التى تعتمد على «استراتيجية» جديدة من حيث المتغيرات المختارة وطرق التحليل الإحصائى المستخدمة.

المتغيرات الاجتماعية.. والموت

يسعى المؤلف فى الفصل الحادى عشر من كتابه إلى بحث العلاقة بين قلق الموت والمتغيرات الاجتماعية والموقفية.. ومثل المتغيرات الاجتماعية: الجنس (النوع) ومكان الإقامة، (الريف - مقابل الحضر) والترتيب فى الأسرة، أما المتعلقات الموقفية، فيعنى بها «الخبرة بالموت» فى مجال الحروب عامة. حيث يشير المؤلف إلى أن بعض الدراسات أثبتت الافتراض القائل بأن الأسرة تمارس تأثيرًا بيئيًا شاملاً على قلق الموت (ص/ ٢٧٨ من الكتاب)

ولكن الطريف هنا حديث المؤلف عن «متعلقات الحزن أو الأسى بعد موت» حيوان أليف «حسب ما أورده كل من «بلانشون وتمبلر» فى دراستهما حيث يؤكد عدد من المهنيين فى مجالى الصحة النفسية والطب البيطرى أن أعراض الحزن أو الأسى بعد فقد حيوان أليف (كالكلاب أو القطط عادة) تكون مشابهة للأسى التالى لموت إنسان عزيز حتى أن هذه الأعراض كثيرًا ما يصاحبها البكاء والغضب وفقد الشهية، والأرق، والاكتئاب والصدمة، وعدم التصديق وغُصة فى الحلق، بل الرغبة فى شرب الخمر!! (ص ٢٩٥ من الكتاب)

ومن أطرف ما أورده المؤلف فى هذا الفصل حديثه عن «الموت المفضل» حيث كشفت دراسة أمريكية أجريت فى هذا الصدد عن أن النساء يفضلن أن يمتن فى عمر أقل بتسع سنوات تقريبًا من العمر الذى يتوقع لهن أن يعشنه اعتمادًا على الإحصائيات الصحية القومية. بينما فضل ٩١,٣٪ من الطلاب مكانًا للوفاة خارج مؤسسات الرعاية، فى حين اختار أكثر قليلاً من نصف الطلاب الطريقة التقليدية «للدفن» تحت الأرض!!

فى الفصل الثانى عشر من الكتاب «قلق الموت والشخصية»، يوضح المؤلف أن لقلق الموت متعلقات كثيرة، أى متغيرات ترتبط به أو جوانب مصاحبة له، ومنها تلك المرتبطة بالشخصية فى تعريفها الواسع كما أن لهذا القلق متعلقات أخرى كالاتجاهات والتحصيل الدراسى والتعليم والذكاء، فضلاً عن بعض السلوكيات الفعلية كزيارة المقابر. حيث تبين - حسب دراسة «ريتشارد كاليش» أن

٢٦٪ من الطلاب الذين أجريت عليهم الدراسة، لم يزوروا مقبرة لأى سبب من الأسباب خلال الخمس سنوات «التى أجريت فيها الدراسة» (Kalish, 1986) وأن ٤٥٪ منهم لم يزوروا مقبرة من أجل دفن ميت خلال الفترة نفسها، وأن ٦٢٪ من هؤلاء الطلاب لم يزوروا مقبرة من أفراد الأسرة أو صديق، ولم يرتبط أى من العمر والجنس والخوف من الموت (كما قيس ببند واحد فقط بصيغة ليكرت) بتكرار زيارة المقابر.

بينما كشفت دراسة مماثلة لكل من «ثورسون وهوراسيك وكارا» (1987) عكس ذلك تمامًا من وجود «ارتباط دال وموجب بين الخوف من الموت وعدد زيارة المقابر، فظهر أن المجموعة ذات الدرجات المرتفعة فى الخوف من الموت زارت المقابر بشكل أكثر تكرارًا بالمقارنة إلى المجموعة ذات الدرجات المنخفضة فى قلق الموت، وأرجع المؤلفون هذه الفروق بين الدراسات إلى عوامل عدة منها العمر الأكبر للمبحوثين فى هذه الدراسة، فضلاً عن الاختلاف فى توزيع متغيرات الدين والعنصر والعادات (ص ٣١٩ من الكتاب)

لكن السؤال الجدير بالطرح هنا هو: هل للتفاؤل والتشاؤم Optimesmm - Pessimism علاقة ما بقلق الموت؟

الحقيقة أن المؤلف أجاب عن هذا السؤال من خلال إشارته لدراسة قام بها فى عام (١٩٩٨) على عينتين من طلاب جامعة الكويت الذكور والإناث (ن = ٢٧٠) وقد افترض (عبد الخالق) وجود علاقة بين قلق الموت والتفاؤل (سلبية) والتشاؤم (إيجابية) وصدق الفرض على هذه العينة، حيث استخرج من الارتباط عامل «الاستبشار - الضيق» باعتبار أن التشاؤم توقع سلبى للأحداث القادمة.

قلق الموت والصحة والمرض

انتقل المؤلف بعد ذلك للحديث عن علاقة قلق الموت ببُعد الصحة - المرض فى جانبيه النفسى والجسمى، فعرض لقلق الموت وأثره فى الاضطرابات النفسية بوجه عام، ثم تفصيلاً على مستوى كل من القلق والاكتئاب والوساوس والكوابيس، وشلل النوم (الكاناشيبارى)، ثم قلق الموت والأمراض العقلية والانتحار والإجرام والجنسية المثلية والإدمان والصحة الجسمية، والسلوك الباحث عن الصحة والانخراط فى سلوكيات مميتة والحالات المرضية الخطيرة.

واللافت للنظر فى هذا الفصل الثالث عشر من الكتاب ما أبرزه المؤلف من خلال ما أثبتته بعض الدراسات عن الاضطرابات النفسية من أن الشخص ذا الدرجة المرتفعة من قلق الموت يتصف كذلك بحساسية انفعالية مرتفعة أيضًا وأن ثمة صلة - نتيجة لذلك - بين قلق الموت والاضطرابات النفسية، كما يرتبط الخوف من الموت بمشاعر الاكتئاب حيث إن أفكار الشخص المتصلة بموته تصاحبه عادة أثناء فترات الاكتئاب أو عقب حادثة ما. وقد أكدت ذلك ثلاث دراسات عربية قام بها عبد الخالق نفسه على مصريين ولبنانيين

وكويتيين، ظهر منها وجود ارتباط جوهرى بين قلق الموت والاكتئاب (١٩٩٨)، (٢٠٠) (ص ٣٢٦ من الكتاب).

لكن المثير فى هذا الصدد ما أورده المؤلف فى نهاية هذا الفصل لما بينته البحوث حول الأحداث من الأطفال الذين يكونون مصابين بمرض مهدد لحياتهم، خصوصًا فى حالة ما إذا كانوا واعين بدرجة متزايدة بمفاهيم الموت من خلال خبرتهم مع المرض.

فقد تبين أن الوعى الزائد بتلك المفاهيم لدى هؤلاء الأطفال بمقارنتهم بالأطفال الأصحاء أو المرضى بمرض مزمن، وكذلك الأطفال الذين هم على فراش الموت، وبخاصة أثناء المرحلة الأخيرة لمرضهم، فإنهم يكشفون عن فهم متقدم لمفهوم الموت تعذر إلغاؤه ونهائيته بوصفه حقيقة مطلقة لديهم!!

هل للفروق الثقافية علاقة بقلق الموت؟

هذا السؤال يجيب عنه فى الفصل الرابع عشر فى الباب الرابع والأخير من هذا الكتاب، حيث يعرض المؤلف فيه لقلق الموت عبر الثقافات المختلفة. إذ كشفت كثير من الدراسات عن ارتباطات متعددة لقلق الموت بكل من التدين والعمر والمهنة والوضع الاجتماعى... وكذلك «الثقافة» بمفهومها المتنوع والشامل ومدى ما لها من دور فى «التعديل» من قلق الموت، أو أن قلق الموت يختلف ـ ببساطة ـ باختلاف الثقافات.

وبعد استعراض المؤلف المسهب لهذه القضية عبر العديد من الثقافات و«القوميات» الإنسانية المعاصرة، من خلال الدراسات المختلفة التى أجريت فى هذا الشأن، بدءًا من الدراسات التى أُجريت حول «المصريين» و«الأمريكيين»، وعينات من أستراليا من شمال أيرلندا وكندا، ثم اليابان وماليزيا، ونيجيريا، والسنغال، وأسبانيا... إلخ، خلص المؤلف إلى التأكيد على أن بعض الدراسات تشير إلى زيادة تاريخية جوهرية فى الانشغال بالموت خلال القرن العشرين، وبخاصة لدى النساء وصغار الراشدين، وقد بينت بعض تلك الدراسات أنه نتيجة للتغيرات الثقافية فى المجتمع الغربى منذ أوائل القرن العشرين برزت علاقة بين الاتجاهات الثقافية نحو الموت وبعض العلل الاجتماعية، مثال ذلك أن تأثير التزايد الكبير للتقنيات الطبية القادرة على تحسين الحياة وإمداد الشخص بأسباب قد محت شخصية الموت والاحتضار وولدت مسافة انفعالية كبيرة بين الموت والأفراد وهذا أمر شجع على إنكار حقيقة الموت فى الحياة اليومية، كما ذهب لذلك (Kastenbaum).

وبالطبع فإن هذا الفهم أو التفسير يرتبط بتصور أو عقيدة هؤلاء الأفراد الفيزيقية «المادية» للموت بفصله عن أمر الله (عز وجل) «المُراجع».

أما الفصل الخامس عشر من الكتاب فقد تناول فيه المؤلف «قلق الموت لدى خمس دول عربية» من خلال إبراز دور الثقافة بوصفها عاملاً

مهمًا فى هذا «القلق»، فتحدث عن مفهوم الموت فى الثقافة المصرية (ص ٣٦٩ ـ ٣٨٨)

وقد لاحظ المؤلف فى هذا الصدد أن المصريين يكثرون ـ فى حياتهم اليومية ـ من استخدام كلمة الموت دون سبب واضح، وللإشارة إلى جوانب فى حياتهم تبدو بعيدة عن هذا المفهوم. وإن كان يرى أن إسرافهم فى استخدام هذه الكلمة فى غير موضوعها فى مثل تلك التعبيرات الشائعة يسهم فى أن يغرس الحزن فى قلب الفرح، فيترعرع النقيض وسط المرح وتنمو الأتراح فى صميم الأفراح!!

كذلك يرصد المؤلف نموذج الدعاة القائم على الترهيب والوعيد فى خطب الجمعة فى بعض المساجد المصرية والذى يتسم بالمبالغة فى هذا الجانب، إنما يتسق مع نموذج استجابة الحزن الشديد والبكاء والاكتئاب بما قد يترتب عليه ارتفاع قلق الموت والخوف منه، كما أجرى المؤلف «مقارنة» بين خمس دول عربية فى قلق الموت من خلال عدد من الدراسات أجريت فى هذا الشأن فى كل من مصر، السعودية، الكويت، سوريا، لبنان، وعلل اختيار هذه الدول الخمس لوجود عينات منها أو باحثين مشاركين فيها، حيث أُستخدم فى المقارنة بين عيناتها لقياس قلق الموت مقياس واحد، هو مقياس «تمبلر» والذى استخدم فى المقارنات الثقافية بلغات متعددة، لما يتمتع به من مزايا عديدة. (ص ٣٨٩ ـ ٤٠٠ من الكتاب)

فى الفصل السادس عشر من الكتاب تحدث المؤلف عن «الخبرات القريبة من الموت»، فبدأ بتعريف هذه «الخبرة» ومكوناتها وخواصها، ودورها فى التحول الشخصى، وتناقص قلق الموت بعد خبرة القرب من الموت.

أما الفصل السابع عشر والأخير من الكتاب فقد تناول فيه المؤلف «مواجهة قلق الموت» والذى بدأه بسؤال مهم: هل يعد قلق الموت مرضًا أو اضطرابًا حتى يعالج أو يُعدل؟ ومن استعراضه لدراسة «تمبلر» فى هذا الصدد، والتى ترى وجود مكونين أساسيين لقلق الموت وهما: حالة الفرد النفسية العامة، وخبراته المتصلة بموضوع الموت. يخلص المؤلف إلى القول بأن: قلق الموت المرتفع ـ بالنسبة لكثير من الرجال والنساء ـ نتاج اضطراب نفسى أكثر شمولاً، وخبرات نوعية متصلة بالموت وفى هذه الحالة يجب أن يعالج قلق الموت بمزيج من الطرق غير المباشرة والمباشرة معًا (ص ٤١٥ من الكتاب)، وإن كان يرى أن علاج قلق الموت هو المفهوم الضيق، فى حين أن التربية المتصلة بالموت هى المفهوم الأشمل.

ومن ثم يعرض لهذه التربية من خلال عدة بنود هى: تنوع برامج التربية المتصلة بالموت، الأساس المنطقى لهذه التربية، نبذة مختصرة عنها، ونموذج برنامج لخفض قلق الموت، ونتائج برامج عملية هذا الخفض الإيجابية والسلبية (ص ٤٢١ ـ ٤٢٥)، ومدى تأثير برامج التربية المتعلقة بالموت، لكن الطريف هنا هو تقديم المؤلف لما يسميه «تعليم

مواجهة الموت للمتعاملين مع الموتى» بداية من التعامل مع المحتضر وإعداده (تمهيده لقبول) عملية الموت.

وفى نهاية هذا الفصل الأخير من الكتاب يعرض المؤلف لـ «نماذج لطرق علاج قلق الموت» والتى تتمثل ـ من وجهة نظره ـ فى التحصين، وتطبيق نموذج التعليم التطورى، واستخدام التنويم لمساعدة مريض على فراش الموت (يحتضر) على مواجهة موته الوشيك. لكن ما يستوقف النظر هنا هو حديث المؤلف عما يسميه «العلاج بالمعنى» (ص ٤٣٦ من الكتاب) وفيه يتم التركيز فى المرحلة الثانية من العلاج على مشاعر المريض بخصوص إقامته فى المستشفى وردود أفعال أسرته لحالته الراهنة. وهذا العلاج يركز أيضًا على ما يعرف بـ«المأزق الإنسانى للمحتضر وذلك بمساعدته فى التغلب على ما يسميه «فرانكل» بالعصاب الوجودى EXistenial neurosis أى عدم القدرة على رؤية المعنى فى الحياة (ص ٤٣٦ من الكتاب)

تقييم وملاحظات

لاشك أن كتاب سيكولوجية الموت والاحتضار للدكتور أحمد عبدالخالق، جهد علمى متميز وغير مسبوق لا سيما فى مجال «فهم» أو محاولة «تفسير» هذه «الظاهرة» السيكولوجية فى مجال علم النفس المعاصر. فقد نجح المؤلف فى معالجة موضوع «الموت» من جوانبه المختلفة: الفلسفية والأدبية والاجتماعية، والدينية والصحية والمحلية، إضافة إلى تركيزه على النظريات التحليلية الغربية للموت «وقلقه» أو القلق منه وبسببه.

ويؤكد ذلك «المنهج» العلمى المتمثل فى خطة الكتاب التى عالج المؤلف من خلالها هذا الموضوع الفلسفى المعقد. ومن ثم نعتبر هذا الكتاب إضافة علمية قيِّمة وجديدة فى هذا المجال، الأثير بالنسبة لمؤلفه والذى يحظى باهتماماته البحثية منذ أكثر من عقدين من الزمان حتى اليوم.

ومع ذلك فإن هناك بعض الملاحظات «المنهجية» التى نتمنى على المؤلف الالتفات، إليها أو مراعاتها فى هذا الصدد. ومن ذلك ما يلى:

١ ـ خصص المؤلف الفصل الأول من كتابه عن «الدراسة العلمية للموت ـ تمهيد: الموت ودراسته».. وفات المؤلف تخصيص جزء فيه عن «الموت فى الديانات السماوية»، لما له من ارتباط مباشر بسيكولوجية الموت. وقد كان الأنسب أن يأتى حديث المؤلف عن «قلق الموت والتدين» فى هذا الفصل وليس كما جاء فى الفصل التاسع من كتابه (ص ٢٣٠ ـ ٢٥٨) فالصفحات من (ص ٢٢٩ ـ حتى منتصف ص ٢٣٢)، وكذلك (ص ٢٤٦ ـ ٢٥٧) وهو الجزء الذى تحدث فيه المؤلف عن «الفروق بين أصحاب الديانات المختلفة فى «فهم» أو تفسير قلق «الموت»، وأيضًا الموت فى الدين الإسلامى... هذا الجزء كان يتوجب على المؤلف أن يُضمِّنه فى (التمهيد) فى الفصل

الأول من الكتاب، لما فى ذلك من الترتيب المنهجى والمنطقية العلمية فى منهج البحث والتأليف.

فبهذا «الترتيب» يكون الفصل الأول من كتابه قد استوفى الإطار النظرى له، إضافة إلى إعطاء القارئ «خلفية» تاريخية/ نظرية، عن «الموت ودراسته» تمهيدًا لدراسة «قلقه» من منظور علم النفس المعاصر.

٢ ـ نعتقد أن الفصل السابع من الكتاب والذى يتحدث فيه المؤلف عن (أسباب قلق) الموت مكانه المناسب بعد الفصل الخامس (مفهوم قلق الموت) فذلك هو الأقرب للترتيب المنطقى لمنهج الكتاب، وليس مكانه ـ كما هو حاصل ـ فى الفصل السابع من الكتاب بحيث تشكل الفصول الستة الأولى من هذا الكتاب الإطار النظرى/التعريفى/ العلمى، للموت والاحتضار.. مفهومًا وفكرة وفلسفة وديانة...إلخ، ثم تأتى الفصول الأخرى من الكتاب بمثابة (الجزء الثانى) المتعلق بالقياس (التطبيقى) السيكولوجى لقلق الموت فهذا «الترتيب» هو الأقرب ـ علميًا ومنهجيًا ـ لهدف المؤلف فى هذا الكتاب.

٣ ـ أسرف المؤلف كثيرًا فى تضمين كتابه كثيرًا من مقاييس الباحثين الغربيين لقياس قلق الموت، من أمثال «تمبلر» و«كوليت» و«ليستر» و«ديكستاين» و«هولتر» و«كونت وزملاؤه» وغيرهم وكل هذه الدراسات أو «المقاييس» كان يمكنه الاكتفاء عنها بالإشارة إليها، بالرغم من نقده لبعضها هنا. وأن يكتفى فى هذا الصدد بالحديث عن «المقياس المتعدد الأبعاد للخوف من الموت»، ثم المقياس العربى لقياس قلق الموت الذى أعده المؤلف نفسه بالاشتراك مع آخر، باعتباره أحدث وأسبق مقياس فى عام ١٩٩٦م. والسبب فى ذلك هو تخليص كتابه من «الحشو» الذى يؤخذ على الباحثين الأكاديميين وبحوثهم فى هذا المجال.

٤ ـ فى عرض المؤلف للمتعلقات الدينية للخوف من الموت لدى شريحة من «السعوديين» استند إلى دراسة «دينيس لونح» من «أوهايو» وسلمى الغنيمى من طرابلس/ليبيا، ١٩٨٧. وأشار إلى أنه «بينت نتائج هذه الدراسة أن الذهاب حاليًا إلى المسجد له علاقة سلبية بالخوف من الموت المبتسر (قبل الأوان). وأن التدين ـ كما يدركه الشخص يرتبط ارتباطًا سلبيًا جوهريًا بالخوف من موت الآخرين المهمين...» (ص٣٦٥ من الكتاب). وهذا الاستنتاج كان الأوْلى بالمؤلف أن يناقشه تأييدًا أو معارضة، وخصوصًا أنه أجرى دراسة على «عينة سعودية» حول أسباب قلق الموت (ص ١٩٥ ـ ١٩٧ من كتابه). وهو ما يجعلنا لا نسلم بتلك «النتيجة» التى ترى وجود علاقة سلبية فى الذهاب إلى المسجد والخوف من الموت. مما قد يفهم منه أن الذهاب للمسجد من قبل هؤلاء السعوديين أو غيرهم من المسلمين بصفة عامة دافعه الأول هو الخوف من الموت وليس الإيمان العقدى بالله

وحـده الذى لا شـريك له، بمعنى الخـوف من الموت، وليس الحـرص على إرضاء الله عز وجل فى المقام الأول من مقامات العبادة الخالصة لله تعالى، ذلك لأن الله تعالى لا يجمع فى قلب عبده خوفين ولا أمنين، كما فى معنى الحديث النبوى الشريف.

فالموت هنا أو استحضاره لدى المؤمنين بالله عامة هو بمثابة منبه (مثير) أو حافز لهم على العبادة وليس الخوف منه فى ذاته هو الدافع للذهاب إلى المسجد الذى ربطت بينه وبين الخوف من الموت هذه الدراسة المشار إليها.

وفى ختام عرضنا لكتاب سيكولوچية الموت والاحتضار للدكتور أحمد محمد عبدالخالق، ننبه إلى أن تلك الملاحظات النقدية لا تقلل من قيمة الكتاب ولا تنال من تقديرنا للجهد العلمى المبذول فيه.